

أسباب النباهة والخمول في الأدبين العربي والانجليزي للأستاذ فخري أبو السعود

الرواة بما بين أيديهم من الأدب العربي ، وشوهوه بالبتر والوصل والاختراع والنحل ، وحملهم تنافسهم وتكاثرهم بسمة العلم على تخليد أسماء أنصاف الأدباء وأشياء الشعراء ، وخلقوا شعراء وفصحاء لم يخلقوا من قبل ، وعزوا إلى غيرهم من الآثار ما هم براء منه ؛ وهكذا نحل من رجال الأدب من عاشوا في عالم الأحياء ، وعاش في عالم الأدب من لم يشهدوا نور الحياة

ولما استعملت الكتابة الخطية وقل الاعتماد على الرواية ، ظلت الكتب نادرة والاستنساخ أصراً غير يسير ، ولم تكن الكتب في شيء من الكثرة التي صارت إليها بعد انتشار الطباعة . ثم تجاوزت الدولة العربية الغزوات البربرية المدمرة ، فأباد الوثنيون في الشرق ، والنصارى في الأندلس ، كرائم المؤلفات ونفائس الكتب العربية ، فذهبت بذهاب ذلك آثار أعلام من الأدباء واندثر ذكر آخرين

وكانت للمشادات والمقارعات الدينية والمذهبية والمصيبة والسياسية والجنسية التي صحبت قيام الدولة الإسلامية ولازماتها في حياتها يد طولى في البيت بالتراث الأدبي ، فأخل ذكر أدياء انهزم حزبهم أو انحذل مبدؤهم ، ونشر عمداً ذكر من ناصروا الغالبين في كل تلك الحليبات ، وتبارى الغالبون والمنفلبون في العبث بتراث أسلافهم الأدبي ونسب الروايات الملتفة اليهم ، ولهم من انتشار الرواية ونذرة الكتابة خير معوان

ويتصل بهذا تقريب الخلفاء والأمراء لرجال الأدب ، لا برأ بالأدب ولكن طلباً للأبهة وبمد الصيت ، فقد أصبح اتصال الشاعر أو الأديب بالخليفة أو الأمير ضمان النباهة وسيرورة آثاره في البلاد ، كما كان الأخفاق في انتقرب إلى أولئك الحاكمين داعياً في كثير من الأحيان إلى خمول الأديب ، فنذر من أعلام العربية النابهين من لم يتصل بالخلفاء والوزراء . ولا يسع المرء إلا أن يتصور أن عصور أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحترى كانت حافلة بأندادهم ، وإنما خلصت بهؤلاء لطافة حيلهم إلى حضرة الأمراء فاشتهروا ، وعثر بنيرهم معاهم فغفلوا . ولقد نحل ذكر ابن الرومي طويلاً وإنه لأشعر ممن ذكروا جميعاً ؛ ولعل من أسباب خمول ذكره فشله في الاتصال بالخلفاء والوزراء

الممارسون للأدب ثراً ونظماً في كل أمة وفي كل جيل أكثر من أن يُعدوا ، لأن الإفصاح عن خواجج النفس وتأثراتها بما تحس وما ترى طبعي في الانسان ، وإنما ينسب من أوائك الممارسين للأدب القليلون ويحذل الأقل ؛ يميز من غيرهم سداد الفكر ولطف الشعور وروعة الأسلوب ، ومن أولئك يكون أعلام كل أدب ، رفعمهم عبقرتهم فوق رؤوس معاصريهم وتعنى بهم على عواتق الأجيال

غير أن للمصادفات والحظوظ والظروف دخلاً كبيراً أو صغيراً في صعود الأدباء وهبوطهم ، فتعدل أحياناً وأحياناً تجور . والأرجح أنها كانت كثيرة الجور والاجحاف في الأدب العربي ، وكانت أشبه بالمدل والانصاف في الأدب الانجليزي ، فقد صاحبت الأدب الانجليزي ظروف طبيعية مساعدة تسمع للمبقرية الفردية أن تملك سبيلها غير متعاقبة ، وأحاطت بالأدب العربي عوامل عارضة أدت إلى رفع بعض من لا يستحقون الرفع بمجوار من يستحقونها ، وإلى خفض من هم أولى بالرفعة والنباهة

فقد ترعرع الأدب العربي ونضج وقومه أميون لا يقيدون في القرباس آثار أديانهم وأخبارهم ، وإنما يروونها رواية ويتوارثونها توارثاً جيلاً بعد جيل ؛ والرواية أقل من الكتابة نصيباً من الدقة وحفظ الآثار والتمييز بين الفث والسمن والبصر بما يستحق البقاء ، فكان من جراء ذلك أن ضاع شعر كثير وتر أكثر ، واندثرت أخبار أدياء ليل منهم من كان أجدر بالخلود وأجدر بمحباب الأجيال التالية ممن خلد ؛ ولم يصلنا من أخبار قرون طويلة قبل الاسلام وبعده إلا كل مبتور غير مستوثق فلما صارت الرواية صناعة يطلب بها علو الذكر ودرؤ الرزق وتقريب الأمراء ، كان ذلك ضغناً على إبالة ، إذ اشتد عبث

عن أفكار عصورهم وشموورها ؛ ومنهم من نال من رفيع الذكر ما هو أهل ، ولكنه لم ينله لمزاياه الصحيحة وأسرار نبوغه الحق بل لمساعدة بعض تلك العوامل السالفة الذكر له ؛ فقد كان وما يزال من التقاد من معظم المتنبي لا لأشعاره الصادقة التي أودعها عصاره روحه الكبير ، بل لاختراعاته السكاذبة في مدح سيف الدولة وتمننته وتمزيته ، من مثل قوله :

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه في أغمارها تنبسم
وبجانب تلك النباهة غير المتأهله أو البنية على غير أسامها
الصحيح ، خمول ما كان أحق أصحابه بالذكر والتمجيد ، ولقد قال
البحتري :

إذا أرت الدنيا نباهة ضامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه
ولعله هو خير من يعلم كم أخلت الدنيا بنباهته من شعراء ،
حين وقفه الحظ دونهم إلى الاتصال بالولاء والخلفاء

فمن أفذاذ الخوازيج أمثال قطري بن الفجاءة وشيب بن يزيد
من كانوا أسمى غرضاً وأشرف شعراً ونشراً من معاصريهم الداحين
ولكنهم أخل منهم ذكراً . ومن الأبيات السائرة المجهولة القائتين
ما تشعل حكمة يقصر دون مداها أشباه بشار وأبي نواس ، أو
نحوى نسيباً تزدى روعته بكل ما لفق في صدور الدائح من
نسيب مصطنع ، أو تعبر عن شاعرية صحيحة ما كانت أخرى
صاحبها أن يتوفر على إراء اللغة بفيض قريحته ، ولكن طوفان
تلك العوامل القاسية غمره ورفع غيره ، فمن تلك الآثار الشاردة
قول القائل :

أهابك إجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها
وقول الآخر :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها
فأكرم أخاك الدهر ما دتما معا
فقدت صديق والبلاد كما هي

كفي باليات فرقة وتناثيا
ولم يخلُ الأدب الإنجليزي من آثار الاجفاف وتغلب
الظروف : فأمام شعرائه شكسبير لم ينل في حياته مثل ما له اليوم
من مكانة ، وخمل ذكره بعيد مائة أجيالاً ، وعلا شأنه خارج
إنجلترا قبل أن يعلو فيها . وقريبه في سماء الشعر الإنجليزي ملتون

ولما استرقت جوائز اللوك أعناق الشعراء ، وأعمل
هؤلاء الحيل ، وأذالوا الشعر في استرضاء المدوحين واستجداء
الأثرياء ، ترفع كثير من ذوى الشرف والأباء عن الهبوط الى ذلك
المجال ، وأحجموا عن نظم الشعر أو التوفر عليه أو الاشتهار به ،
ولسان حالهم قول الشافعي :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد
وإن يكن أبو تمام يقول :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى

بناة الملا من أين تؤتى المكارم
فإنما كان يعنى شعر المتقدمين من جاهليين ومخضرمين ممن تنفوا
في شعرهم بالنجدة والروعة والمزة ، وما تخاله كان يعنى الشعر الذى
كان ينظمه هو وأضرابه تعلقاً واستجداء للرؤساء

وبذلك حُرمت العربية طائفة من الشعراء لعلهم أسمى طباعاً
وأشرف أغراضاً وأصدق شاعرية وأشد حياً للفن من مرتزقة
المداحين الذين استأثروا بالجوائز ونباهة الذكر

ولما فسدت الفصحى تدريجاً باختلاط العرب بالأعاجم ، اشتد
الحرص على آثار المتقدمين وتماظم الإعجاب بهم والرفع من
شأنهم ، لا لشيء سوى صحة لغتهم واستقامة أساليبهم ، وإن
كانت أفكار كثيرين منهم على جانب من السذاجة ، وأغراض
شعرهم على حظ من البساطة ، كالحطيئة وابن أبي ربيعة وكثير
من الجاهليين

فهذه عوامل شتى فعلت فعلها البعيد المدى في التراث الأدبي
العربي ، وصاعدت على إعلاء ذكر رجال وخفض آخرين ، وهى :
ندرة الكتب والاعتماد على الرواية ، والأغراض المذهبية ، وتسخير
الأمرء للشعر ، وتكسب الشعراء به ، وفساد لغة الكلام ،
وكوارث الفارات . تحمكت كل هاتيك في أقدار الأدباء وحظوظهم
من النباهة ، ولم يكن مرده أمرهم دائماً إلى النبوغ الشخصي والذوق
الناقد ، فلا نبعث عن الصدق إذا قلنا إن الأدب العربي لم يمتد على
خير عناصر المجتمع العربي أو يمثله أصح تمثيل ، وإن سجل تاريخ
الأدب العربي لا يمتد على جميع أفذاذ الموهوبين من أصحاب
البيان الذين أجمعهم المجتمع العربي

ومن ثم احتل مكان الصدارة من تاريخ الأدب العربي بعض
من لا يستحقون ذلك المكان ، ومن لا يعبرون خير تمثيل عن

نابليون

وخطواته الأولى في سبيل المجد

للأستاذ عبد المجيد نافع

تتمة

وشبت نيران الثورة في باريس ، ودعت الحاجة إلى قمعها ، فأشاروا على باراس أن يبعد باخمادها إلى نابليون ، ففرض أن يولى قيادة مجلس الأمة وأمهله ثلاث دقائق ليفكر في الأمر ملياً فيأجيباً للأقدار ثلاث دقائق ، ثم يتقرر مصير نابليون ، ومستقبل فرنسا ، لا بل مستقبل أوروبا بأسرها

واستعرض نابليون الموقف ، فلم يتردد في القبول حين رأى خمسين ألف جندي من جنود النمسا بظهورهم على أسوار ستراسبورج ، والانجليز يحاصرون بيوارجهم ثغر بريست ، وحينذاك نسي خصومة المحصور ، وعباءهم وهجزم ، واستلهم الوطنية الحق فألهمته أن الوطن إذا أحدق به الأعداء وجب دفن الخصومات ، ودوس الحزازات ، ووضع اليد في أيدي القاعين بالحكم مهما كانت صفتهم وألوانهم ونزعات نفوسهم

فقال نابليون لباراس : إني أقبل ولكنني أذكرك بأن لن أرد السيف إلى عنقه إلا بعد أن أعيد النظام إلى نصابه وكذلك تجلّى نابليون في ثوب الوطني الصادق والمحارب الصحيح الذي لا يطيق بحال أن تمرقل مساعيه أعمال السياسيين

وكان القبول في الساعة الواحدة صباحاً . فلما أقبل المساء إذا بباراس يملن في المجلس انتصار جنوده . فإذا جاء القدرق نابليون إلى رتبة قائد قسم ، وسمع الناس اسمه يتردد في جوانب المجلس ، ثم يجتاز اسمه منبر الخطابة لينتقل على صفحات الصحف فينفض عنه غبار الخمول الذي حجب اسمه عن الأسماع والأنظار رداً من الزمن

وتقلد بوناپارت قيادة الجيش في الداخل ، واتخذ « فان » سكرتيراً له ، فكان هو الذي كتب أوامره حين باتت قنصلاً

قضى أواخر حياته في غمرة من النسيان لاخذال مذهب الطهريين الذي كان هو لسانه الناطق ، وباع ملحمته الذائبة الصبت لوراق بديرام معدودة ، وظل حقة مهملًا . وكبير النهضة الرومانسية وردزورث قضى زهرة عمره منبوذاً معترساً عنه . وبمكس ذلك سما تيسون في حياته الى أوج الشهرة والاعجاب ، ولم يكذبقضى بحبه حتى هبط ذكره وانصرف الجيل التالي عن شعره

على أن تلك كلها أمثلة لتقلب الأذواق بتماقب الأجيال ، وهو أمر طبيعي لا عيب منه . وقد خلا الأدب الانجليزى أو كاد من تلك الظروف المانية التي لا بست الأدب العربي ومحكمت في مصائر رجاله : فقد شب الأدب الانجليزى من عهد الزباث وقد اخترعت الطباعة ، واطرد رقى الطباعة وانتشار الكتب والصحافة والتعليم مع اطراد رقى الأدب ، ولم يخضع الأدب طويلاً لسيطرة الحكام ، وظل مراد الأمر في تقدير الأدياء إلى رأى العام المتعلم الذى يقوّم الأديب لفنه الخالص ؛ فان رانت على بصيرته فشاوة من تقليد موروث أو مذهب سائد أو مشادة محتدمة في السياسة لم يلبث بعد أن ينجلي ذلك أن يمود إلى إنصاف من أجحف بهم وإسقاط من لم يستحقوا سالف تقديره قالى أمرين اثنين يدين أعلام الأدب الانجليزى في مراحل المتتالية بنباهتهم وخلودهم : نبوغهم الشخصى ، والدوق العام . وليس بين أقطابه الذين يمتد بهم من لا تؤهله عبقريته لما أوليه في تاريخ الأدب من مكانة ، أو من هو مدين بخلود ذكره الى أهواء السياسة أو أعراض الحاكمين أو دسائس الأحزاب أو تحريف الرواة أو عبث النقاد

فالنابليون في الأدب الانجليزى أكثر استحقاقاً لكانتهم من النابيين في الأدب العربي ، وانحاملون الضبونون في هذا الأخير أكثر منهم في الأول ؛ والأدب الانجليزى بما أحاط به من ظروف موالية أسهل تاريخاً ودرسا من الأدب العربي . وهذا الأخير محتاج الى مراجعة ودرس طويل وتاريخ جديد غير التاريخ الذى جرى عليه العرف حتى الآن ليمح كل أديب حقه من التقديم أو التأخير ، و« رَحْرَحَ » عن الصدر من لا تؤهله له آدابهم ونظراتهم في الحياة ، ويستتقد من يستطاع استنقاذهم من غمرة الخمول .

فخرى أبر السعد